﴿... وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

من عواقب ترك الصلاة في الدنيا

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله

يمارس القرآن الكريم هدايته للناس كلٌّ بحسبه، ففي الوقت الذي يعرض الأدلّة العقلية على مطالبه لمن يتفاعل مع مقتضيات العقل، تراه يمارس الترغيب لآخرين جذباً لنفوسهم إلى الحقّ.

أمّا المعاندين لحُجج الله تعالى على الخلق، الجاحدين لآياته البيّنات؛ فيتوعّدهم بما ينتظرهم من مصيرٍ بائس، علّ التخويف يفعل فعله في قلوبهم القاسية.

وفي سورة «القلم» التي نزلت دفاعاً عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم في مواجهة متّهميه بالجنون، يعرض القرآن في آيتيها الثانية والأربعين والثالثة والأربعين مشهداً بليغاً في بيان عاقبة العلوّ والاستكبار في الدنيا. والآيتان هما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾. نضيء على الآيتين المباركتين، بما ورد في (تفسير الميزان: ١٩/ ٣٨٤) للعلامة السيد محمّد حسين الطباطبائي رحمه الله.

«شعائر»

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: «يوم» ظرف متعلّق بمحذوف كـ«اذكر» ونحوه، و«الكشف عن الساق» تمثيلٌ في اشتداد الأمر اشتداداً بالغاً، لما أنّهم كانوا يشمّرون عن سُوقهم إذا اشتدّ الأمر للعمل أو للفرار.

قال في الكشّاف: «فمعنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ في معنى يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثَمّ ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يدَ ثمّ ولا غلّ، وإنّما هو مثَل في البخل».

والآية وما بعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنّهم سيُسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب، فذكر سبحانه أنْ لا شركاء لله ولا شفاعة، وإنّما يُحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود؛ أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتّى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة.

وهؤلاء المكذّبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا، فلا يستطيعون السجود في الآخرة، فلا يسعدون ولا تتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البتّة، بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتّى يتمّ لهم شقاؤهم فيَرِدوا العذاب الأليم في الآخرة.

* فمعنى الآية: أذكرْ يوم يشتدّ عليهم الأمر ويُدعون إلى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون؛ لاستقرار ملَكة الاستكبار في سرائرهم، واليومَ تُبلى السرائر.

* قوله سبحانه: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: حالان من نائب فاعل ﴿يُدعون﴾، أي حالَ كون أبصارهم خاشعة، وحالَ كونهم تغشاهم الذلّة بقهر، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها.

ورد عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام عن تفسير الآية، قوله صلوات الله عليه: «**حجابٌ من نور يُكشَف**

فيقعُ المؤمنون سجّداً، وتُدمج أصلابُ المنافقين فلا يستطيعون السجود».

وسُئل أبو عبد الله الصادق عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، فقال: «**سبحان ربّي الأعلى**». قال الشيخ الصدوق بعد نقل هذا الحديث: «قوله عليه السلام: (**سبحان ربّي الأعلى**) تنزيهٌ لله سبحانه أن يكون له ساق».

* قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾:

المراد بالسلامة سلامتُهم من الآفات والعاهات التي لحقت نفوسَهم بسبب الاستكبار عن الحقّ، فسلبتها التمكّن من اتّباعه. والمعنى: وقد كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود لله وهم سالمون متمكّنون منه أقوى تمكّن، فلا يجيبون إليه.

ورُوي عن الإمام أبي عبد الله الصادق في تفسير الآية، قوله عليه السلام: «**وهم مستطيعون**».

هولٌ في موضع شدّة

ورد في (زبدة التفاسير) للفقيه الشيخ فتح الله الكاشاني، المتوفى سنة ٩٨٨ هجرية:

* معنى قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾:

يوم يشتدّ الأمر ويصعب الخطب، فإنّ كشف الساق مَثَلٌ في ظهور اشتداد الأمر وصعوبة الخطب. وأصله تشمير المخدّرات عن سُوقهنّ في الهرب. وتشمير الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه، فيشمّر عن ساقه. فاستُعير عن الساق في موضع الشدّة من غير كشف الساق حقيقة.

أو معنى الآية: يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عَياناً، مستعارٌ من ساق الشجر وساق الإنسان. وتنكيره للتهويل أو للتعظيم. كأنّه قيل: يشتدّ الخطب يومَ يقع أمرٌ فظيع هائل وشدّة عظيمة.

* قوله عزّ وجلّ ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾:

يقال لهم يوم القيامة: اسجدوا؛ على وجه التوبيخ على تركهم السجود في الدنيا.

أو يُدعون إلى الصلوات لأوقاتها، إنْ كان وقت النزع، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهاب وقته، أو زوال القدرة عليه.

قوله سبحانه: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾:

تلحقهم ذلّة. ثمّ علّل ذلك بقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا، أو زمان الصحّة ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ يعني: أنّهم كانوا يؤمرون بالصلاة في الدنيا فلم يفعلوا.

(انظر المصدر: ٧/ ١٥١)

إنّما يُحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود؛ أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتّى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة

نسبةُ الباري وثُلث القرآن

موجز في تفسير سورة «التوحيد»

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة الثانية عشرة بعد المائة في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، آياتها أربع، وهي مكّية، جاء في الحديث النبويّ الشريف: «...مَن قرأها فكأنّما قرأ ثُلث القرآن، وأُعطي من الأجر عشرَ حسنات بعدد مَن آمَن بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر».**

*** سُمّيت بـ«التوحيد» لأنّ مضمونها كلّه لتأكيد وحدانية الله عزّ وجلّ، وتسمّى أيضاً (الإخلاص)، وعرّفتها الروايات بـ(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، نصّ الآية الأولى منها بعد البسملة.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

قال المفسّرون

العلامة الطباطبائي: «السورة تصفه تعالى بأحديّة الذّات ورجوع ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية، من دون أن يشاركه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو التوحيد القرآنيّ الذي يختصّ به القرآن الكريم، ويبني عليه جميع المعارف الإسلامية.

(تفسير الميزان: ٢٠/ ٣٨٧)

المرجع الديني مكارم الشيرازي: «هذه السورة كما هو واضح من اسمها، (سورة الإخلاص، أو سورة التوحيد) تركّز على توحيد الله، وفي أربع آيات قصار تصف التوحيد بشكل جامع لا يحتاج إلى أيّ إضافة.

وفي نزول السورة، روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ اليهود سألوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقالوا: انسبْ لنا ربّك. فلبث ثلاثاً لا يُجيبهم. ثمّ نزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها**».

(تفسير الأمثل: ٢٠/ ٥٤٦)

فضيلة السورة

* عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنّه قال: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدعْ أن يقرأ في دُبرِ الفريضة بـ(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، فإنّه مَن قرأها جُمع له خير الدنيا والآخرة، وغفَر اللهُ له ولوالدَيه وما وَلدا**».

* وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنّه قال: «**أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ ثُلثَ القرآنِ في ليلة؟**

قيل: يا رسول الله ومَن يطيق ذلك؟

قال: **اقرأوا (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)**».

* عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «**إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صلّى على سعد بن معاذ، فلمّا صلّى عليه قال: لقد وافى مِن الملائكةِ سبعونَ ألف ملَك، وفيهم جبرئيل يصلّون عليه، [قال النبيّ] فقلت: يا جبرئيل بمَ استحقّ صلاتهم عليه؟**

قال: بقراءة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قاعداً وقائماً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً».

* وعنه عليه السلام، أنّه قال: «**مَن مضى به يومٌ واحد فصلّى فيه الخمس صلوات ولمْ يقرأْ فيها بـ(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قيل له: يا عبدَ الله لستَ من المصلّين**».

التفسير الروائي

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الآية:١.

* أمير المؤمنين عليه السلام: «الله، معناهُ المعبود الذي يألَه فيه الخَلق ويؤلَه إليه، والله هو المستور عن دَركِ الأبصار، والمحجوب عن الأوهام والخطرات».

* الإمام الباقر عليه السلام: «الله، معناه المعبود الذي ألِهَ الخلقُ عن درك ماهيّته والإحاطة بكيفيته. ويقول العرب: ألِه الرجل: إذا تحيّر في الشيء فلم يُحط به علماً، ووَلِه: إذا فزع إلى شيءٍ ممّا يحذره ويخافه، فالإله هو المستور عن حواسّ الخلق».

* أبو هاشم القاسم الجعفري قال: «قلت لأبي جعفر الثاني [الإمام الجواد] عليه السلام: ما معنى الأحد؟

قال: المُجمع عليه بالوحدانية. أمَا سمعته يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ..﴾..».

* عن عبد خير، قال: «سأل رجلٌ عليّاً عليه السلام عن تفسير هذه السورة، فقال: هو اللهُ أحدٌ بلا تأويل عدد..».

* الباقر عليه السلام: «..(الله أحد) أي المعبود الذي يألَه الخلقُ عن إدراكِه والإحاطة بكيفيّته، فردٌ بالإلهية متعالٍ عن صفات خلقه».

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ الآية:٢.

* سئل عليّ بن الحسين زين العابدين عليهما السلام عن «الصمد»، فقال: «الصمد: الذي لا شريكَ له، ولا يؤودُه حفظُ شيءٍ، ولا يعزبُ عنه شيءٌ».

* وعنه عليه السلام: «الصمد: الذي إذا أراد شيئاً قال له (كُنْ فيكون)، والصمد: الذي أبدَع الأشياءَ فخلَقها أضداداً وأشكالاً وأزواجاً، وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ».

* الإمام الباقر عليه السلام: «حدّثني أبي زين العابدين، عن أبيه الحسين بن عليّ عليهم السلام، أنّه قال: الصمد: الذي لا جوفَ له، والصّمد: الذي لا ينام، والصمد: الذي لم يَزلْ ولا يزال».

* عنه عليه السلام: «الصّمد: السيّدُ المُطاعُ الذي ليس فوقه آمِرٌ وناهٍ».

* قيل للإمام الجواد عليه السلام ما «الصّمد»؟ فقال: «السيّدُ المصمودُ إليه في القليل والكثير».

«مَن مضى به يومٌ واحد فصلّى فيه الخمس صلوات ولمْ يقرأْ فيها بـ(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قيل له: يا عبدَ الله لستَ من المصلّين»

«لم يلد عزّ وجلّ فيكون له ولدٌ يَرثه في مُلكه، ولم يولَد فيكون له والدٌ يشركه في ربوبيّته ومُلكه، ولم يكن له كفواً أحد فيعاونه في سلطانه»

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الآيتان:٣-٤.

* أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «**الذي لم يولَد فيكونَ في العزّ مشارَكاً، ولم يَلِدْ فيكون موروثاً هالكاً**».

* عنه عليه السلام: «**تعالى عن أن يكونَ له كفوٌ فيشبَّه به**».

* الباقر عليه السلام: «**لم يلد عزّ وجلّ فيكون له ولدٌ يَرثه في مُلكه، ولم يولَد فيكون له والدٌ يشركه في ربوبيّته ومُلكِه، ولم يكن له كفواً أحد فيعاونه في سلطانه**».

* الصادق عليه السلام: «**لم يلِد لأنّ الولد يشبه أباه، ولم يولَد فيشبه مَن كان قبله، ولم يكن له من خَلقِه كفواً أحداً، تعالى عن صفةِ مَن سواه علوّاً كبيراً**».

آداب تلاوتها

* في الحديث القدسيّ: «**اقرأ (قل هو الله أحد) كما أُنزلت، فإنّها نسبَتي ونَعتي**».

* عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: مَن قرأ (قل هو الله أحد) مائة مرة حين يأخذ مَضجعَه غفَر اللهُ له ذنوبَ خمسين سنة**».

* وعنه عليه السلام: «**مَن قرأ (قل هو الله أحد) حين يأخذ مضجعه وكَّل اللهُ به خمسين ألف مَلَك يحرسونَه ليلته**».

* عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «**مَن آوى إلى فراشه فقرأ (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة، حُفظ في داره وفي دوياراتٍ حولَه**».

* المفضّل بن عمر، قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **يا مفضّل، احتجِزْ من الناس كلّهم بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) وبـ(قل هو الله أحد)، اِقرأْها عن يمينِك، وعن شمالِك، ومن بين يدَيك، ومن خلفِكَ، ومن فوقِكَ، ومن تحتك، وإذا دخلتَ على سلطانٍ جائرٍ فاقرأها حين تنظر إليه ثلاث مرات، واعقد بيدك اليسرى، ثمّ لا تفارقها حتى تخرجَ من عنده**».

* الكاظم عليه السلام: «**مَن (قرأ قل هو الله أحد) بينه وبين جبّارٍ مَنعَه اللهُ منه بقراءتِه بين يدَيه ومن خلفِه وعن يمينه وعن شماله، فإذا فعل ذلك رزقه الله خيرَه ومنعَه شرَّه**».

* عبد العزيز بن المهتدي، قال: «سألت الرضا عليه السلام عن التوحيد، فقال: **كلّ مَن قرأ (قل هو الله) وأمَرَ بها فقد عرف التوحيد**.

قلت: كيف يقرأها؟

قال: **كما يقرأ الناس**، وزاد فيه [أي بعد الفراغ منها]: **كذلك اللهُ ربّي، كذلك اللهُ ربّي، كذلك اللهُ ربّي**».

* في باب ذكر أخلاق الرضا عليه السلام ووصف عبادته: «وكان إذا قرأ (قل هو الله أحد) قال: **هو أحد**، فإذا فرغ منها قال: **كذلك الله ربّنا، ثلاثاً**».

* الإمام الرضا عليه السلام: «**قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: مَن مرّ على المقابر وقرأ (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرة، ثمّ وَهَب أجرَه للأموات، أُعطي من الأجر بعدد الأموات**».